جمعيات التعاون

على لوازم المعيشة

محاضرة ألقاها باللغة الفرنساوية في نادي المدارس العليا

برنار ميشيل

المتخرج من المدرسة العملية للدروس العالية بباريس

في ٢٠ يناير سنة ١٩١٠

مطبعة الشركة المساهمة المصرية لنشر الاعلانات بمصر

obeikandl.com

تذكار للمرحوم عمر بك لطفي

اقترح عليَّ صديقي المأسوف عليه المرحوم عمر بك لطفي القاء بعض محاضرات في موضوع التعاون والحَّ في اجابة الطلب فاغتنمت فرصة ساعات الفراغ ـ وهي قليلة عندي ـ لجمع المواد اللازمة لهذا الموضوع. ثم حثني على تعريب هذه المحاضرات ففعلت ولكني لا ادعي العلم ولا الكمال

وقد رأيت أنَّ افضل ما اكرّم به ذكرى هذا المصري العظيم والصديق الحميم لطبقات العمال تقديم ثمرة اتعابي للجمهور عن موضوع طالما اهتم به الراحل العزيز في حياته ؟

برنار ميشيل

سيداتي وسادتي

لا بد لي من التنبيه الى ان الغرض من هذا الاجتماع ليس القاء محاضرة بكل معنى الكلمة بل شرح اهم الارقام المتعلقة بجمعيات التعاون على لوازم المعيشة في محادثة صغيرة قصيرة

وقبل سرد الوقائع وتفسير الارقام ينبغي علي ان اوضح الاسباب التي حملتني على اختيار هذا الموضوع. لا يخفى ان القطر المصري أخذ يهتم من عهد قريب بالمسائل المتعلقة بجمعيات التعاون. وقد صدر اول دعاء لاستمالة الافكار اليها من هذا المنبر الذي اتشرف بالوقوف عليه اليوم. والاهتمام بهذه المسائل اصبح عاماً لان القطر كله تتبع المحاضرات التي ألقاها في هذا النادي جماعة من كبار الخطباء يكفيني ان اذكر منهم اكثرهم بلاغةً وهو عزتلو عمر بك لطفي المحامي. والحركة الفكرية المتعلقة بمسائل التعاون لا تزال في مهدها ولكنها اندمجت

في تيار الحياة الاقتصادية الحديثة العامة واتخذت لها فيها مركزاً. ولا يكون للقطر نصيب من هذه الحياة الا اذا جارى هذه الحركة واقتفى خطواتها.

قد يخيل الى البعض ان جمعيات التعاون هي جمعيات خيرية او للبر والاحسان لانهم يسمعون دائماً بضرورة مساعدة الفلاح وتعضيد صغار المزارعين. فالامر ليس كذلك ولا القصد من هذه الجمعيات تحويل بعض ما يتمتع به فئة اصحاب الاملاك الى طبقة الذين لا يملكون شيئاً

في كل زمان ومكان اضطر الناس الى مراعاة مبداء التضامن الذي يربط افراد الهيئة الاجتماعية بعضها ببعض. والتقدم الذي نراه اليوم في العالم قد زاد هذه الروابط احكاماً. واذا كان التضامن فيما سبق قاصراً على افراد هيئة واحدة فقد تعدى اليوم البحار وربط الشعوب النائية بعضها ببعض

اذا اعتصب عمال صناعة الحديد في المانيا او في انكلترا ترى في الحال المهندس الذي يشتغل في اقاصي الصين بمد الخطوط الحديدية قد وقفت اشغاله لقلة ورود القضبان الحديدية اليه. كذلك صاحب الاطيان الواسعة في روسيا او

الفلاح في افريقيا فانه لا يستطيع اصلاح اراضيه اذ انقطع ورود الآلات الزراعية اليه

وبعكس ذلك اذا طرأت على الفلاح طوارئ منعته من تنقية بزرة القطن او اضطرته الى اكثار مزروعاته مما يضر بمحصول القطن اضطر النساجون الانكليز الى اقلال ساعات العمل والاستغاثة من الفقر الذي يهددهم

فالامور في الحياة الاقتصادية مرتبطة متماسكة كل منها يؤثر في الآخر . وهذا التماسك وهذا الارتباط اشد واقوى في هيئة واحدة وشعب واحد . ولا يصعب علينا ذكر شواهد تاريخية عديدة تدل على ان فقر الشعب وجهله يؤثران في الطبقات التي تظن نفسها منفصلة تمام الانفصال عن العامة . فالمملكة الرومانية ابان انحطاطها علمتنا درساً عظيماً اثبت ان طبقة الذوات والاعيان في تلك المملكة فقدت استقلالها والضمانات الاولية لوجودها عندما اهملت الاعتماد على شعب قد نال نصيباً من الثروة والتمدن

ولا حاجة بي الى الرجوع في التاريخ الى ذلك العهد القديم فما علينا الا ان نرى ما كان عليه الاشراف في

روسيا وتركيا من الاستبداد والاستعباد باغنياء البلاد وعلمائها واقويائها وما ذلك الا لكون هؤلاء لم يستطيعوا مقاومة هذه الطبقات العالية باعتمادهم على عامة الشعب التي كانت غارقة في الجهل والفقر. فعلم الهيئة الاجتماعية له الفخر والايادي البيضاء باكتشافه وتحديده قوانين التضامن بين الطبقات المختلفة في هيئة واحدة بل بين جميع الشعوب في العالم وهذا ما اريد شرحه لحضراتكم بالايجاز قبل مواصلة البحث في موضوع جمعيات التعاون

لاجل ايضاح قانون التضامن يكفيني ان اذكر الكلام البديع الذي خصصه لذلك الاستاذ الشهير شارل جيد (Charles Gide) في كتابه الاقتصاد الاجتماعي (L' Economie Sociale) قال: «قد عرفنا من جهة تأثير الوسط في الانسان بل في جميع الكائنات وعلمنا كيف انه يصعب ازالته ما دام الانسان في وسط تفسده الجيرة وهو بالقرب من بائع الخمور لا يجد له منتزهاً سوى قهوات الرقص او المراسح العمومية. ومن جهة اخرى عرفنا قانون التضامن الذي يربط راحتنا بل صحتنا وحياتنا بصحة امثالنا. فاذا كنا نجتهد بان نجد لهم مساكن صحية وغذاء سليما

وماء نقياً ووسائل للتهذيب والتنزه فذلك يكون لمصلحتهم ومصلحتنا » .

* * *

وما دام يستحيل تحسين حالة الانسان بدون اجراء تعديل في حالة العامة فمن البديهي أن من مصلحتنا جميعاً مساعدة العامة على الترقي واصلاح شؤونهم . والتعاون من الامور المساعدة على ذلك واكثرها فعلا فيه لانه يمس الشخص مباشرة وينبه الفلاح او العامل الى الاهتمام بمسائل الادارة والتعاون ويعلمه المسؤولية في الاعمال المشتركة . فالرجل الذي يشترك في حركة التعاون يربى تربية اقتصادية ويهيء نفسه للاستقلال العقلي الذي لا يذكر بجانبه الاستقلال المادي . ولكن هذا الاستقلال الاخير ايضاً لا يجد عاملا فعالا مثل التعاون الذي يجمع المبالغ الصغيرة ويكون منها ذخيرة قوية تفيد للوصول الى غرض مشترك

ومن جهة اخرى فان مبداء التعاون لا يرفض احداً لانه ليس حركة طبقة من الهيئة الاجتماعية ضد طبقة اخرى بل تجد جميع الطبقات مصلحتهم فيه وهي مزية عظيمة خصوصاً في

ايامنا هذه التي اشتد فيها التزاحم اشتداداً عظيما . فمبداء التعاون جاء في وقته لتسكين الحرب العوان القائمة بين العمل ورأس المال

* * *

من اهم جمعيات التعاون الموجودة الان جمعيات التعاون على لوازم المعيشة وذلك لاسباب شتى اهمها :

ان جمعيات التعاون الخاصة بالاستثمار او بتسليف المال تقتصر على فئات معلومة من الناس او على بعض الحرف اما جمعيات التعاون على لوازم المعيشة فتشمل جميع الطبقات على السواء

انها تنظم اسعار السوق لان الشاري والمستهلك لهما تاثير عظيم على هذه الاسعار على مقتضى مبداء الاخذ والعطاء ولذلك فان تأثير هذه الجمعيات على السوق اكثر من تأثير جمعيات الاستثمار اذ ان هذه تتكيء على جمعيات التعاون على لوازم المعيشة لترويج حاصلاتها

ومن اسطع البراهين على ذلك ما نشاهده في المانيا فان جمعيات التعاون الزراعية امتدت فيها كثيراً واتسعت ولكن عدم وجود جمعيات التعاون على لوازم المعيشة قد اضطر جمعيات

التعاون الزراعية الى الالتجاء الى الحكومة لبيع حاصلاتها . فالحكومة عميل صعب جداً وقد عرف ذلك جيداً اعضاء جمعيات التعاون الزراعية في المانيا عندما ارادوا الالتجاء الى حكومتهم

ويوجد اسباب اخرى لا تقل اهمية عن الاسباب المتقدم ذكرها تجعل جمعيات التعاون على لوازم المعيشة في المقام الاول فان هذه الجمعيات لا تدع سبيلا للوسطاء . والوسيط بوجه عام عبيء ثقيل من الوجهة الاقتصادية. وقد ثبت بالتجربة ان الراحة العمومية تزيد كلما زادت العلاقات بين الصاحب الاول للشيء ومستعمله. واين نجد علاقات اكثر احكاماً من العلاقات بين عضو جمعية للتعاون وعضو جمعية التعاون للاستهلاك

فجمعيات التعاون على لوازم المعيشة هي اذاً اساس نجاح جمعيات التعاون للاستثمار بل هي الغاية القصوى التي يتجه اليها غرض الثانية

ولا بد لي ايضاً من الكلام عن عامل حديث العهد رفع قيمة جمعيات التعاون على لوازم المعيشة. قد سمعتم كلكم عن احتكار الشركات وعن هذه الشركات العظيمة التي تحتكر

حاصلات بلد بل جملة بلاد في آن واحد لبيعها بالاسعار والشروط الاكثر موافقة لها. وقد ألقيت بشأنها محاضرات منذ ايام في الجامعة المصرية . ولكن هل تعلمون ان اهالي مصر أخذوا يشعرون بتأثير هذه الشركات بدليل ما نراه من اسعار زيت البترول التي تحددها لنا

فاحسن سلاح نقاوم به اتحاد اصحاب الحاصلات هو اتحاد المشترين لها ويتم هذا الاتحاد بواسطة جمعيات التعاون على لوازم المعيشة

* * *

ايها السادة — قد بسطت لكم مزايا جمعيات التعاون على لوازم المعيشة وبقي علي ذكر تاريخها بالايجاز حتى يتبين لكم اهميتها وتأثيرها . فلمعرفة ذلك يجب ان نبحث عن هذه الجمعيات في انكلترا كما انه يجب ان نبحث عن جمعيات التعاون للاستثمار وعن النقابات الزراعية في فرنسا وعن شركات تسليف النقود في المانيا . فانكلترا جعلت جمعيات التعاون على لوازم المعيشة اساساً لمبداء التعاون فيها والبلدان الاخرى تحاول الان جعلها الغاية القصوى التي يرمي اليها مبداء التعاون

ففي انكلترا ابتدأت حركة التعاون في سنة ١٧٧٧ حيث أسست جمعية من هذا القبيل في جافاس (بالقرب من جلاسكو). وفي اوائل القرن الماضي تعددت هذه الجمعيات بتأثير بعض رجال القلم وفي مقدمتهم روبرت اوين (Robert Owen) وبفضل طبيعة الانكليزي ايضاً الذي يميل الى التعاون والتعاضد في المشروعات الاقتصادية

ولكن جمعيات التعاون في ذاك العهد كانت كلها قصيرة الحياة. والسبب في قلة نجاحها ناشيء ليس فقط عما لاقته من الصعوبة في اول عهدها كما هو شأن الحركات الفكرية العظيمة وهي في مهدها بل ايضاً وخصوصاً لانهم لم يقفوا لها على شكل ثابت وطيد. وقد وجد هذا الشكل نساجون فقراء عضتهم الفاقة وعلمهم الفقر

ففي سنة ١٨٤٤ اجتمع بعض نساجي بلدة روتشدل. وقرروا فيما بينهم انشاء جمعية للتعاون باسم « نساجو روتشدل العادلون » (Equitables Pionniers de Rochdale) وانهم لا يأخذون من ارباح رأس المال سوى ٥ في المائة ويخصصون ٥ في المائة اخرى. باعمال ذات منفعة عمومية والباقي يوزع على عملائهم الذين.

اشتروا من مخازنهم بنسبة قيمة ما اشتروه . فلذاك العهد كانت الارباح توزع على رأس المال بنسبة قيمة ما دفعه كل مؤسس . فبتقريرهم توزيع قسم من الارباح على المشترين خرج نساجو روتشدل عن المشروعات التي توزع جميع الارباح على رأس المال وقلبوا مبداء مكافأة رأس المال الذي كان معروفاً لذاك الحين ووجدوا افضل طريقة لحث المشترين على اقتناء لوازمهم من مخازن جمعيتهم . وبالاختصار فانهم وجدوا الشكل الثابت لجمعيات التعاون . فلهذا الاكتشاف من الوجهة الاقتصادية ذات الاهمية التي للبخار من الوجهة الميكانيكية ولا يخفى ان مكتشف البخار رجل عصامي ايضاً

ولا بد لي من كلمة بشأن ما قرره نساجو روتشدل من توزيع ٥ في المائة من الارباح على الاعمال ذات المنفعة العمومية. فان هذا القرار حسن في حد ذاته ولكنه يزيد حسناً متى علمنا ان جمعيتهم ابتدأت صغيرة جداً فان بلدة روتشدل وضواحيها كان قد انتابها الفقر بسبب اعتصاب أثر في مالية سكانها والنساجون الاثنا وعشرون الذين ألفوا جمعيتهم كانوا يدفعون حصتهم فيها بدفعات شهرية لا تزيد عن عشرة مليمات لكل واحد

ولكن اذا كان اول تأسيس جمعيات التعاون صغيراً جداً فالفكرة كانت كبيرة ومريدوها رجال كلهم متصفون بالشجاعة والتضامن وانكار النفس . وقد كانوا في حاجة عظيمة لهذه الشجاعة والتفاني في انكار الذات اذ ان عملهم صادف قلة اكتراث جيرانهم به وعداوة السلطة العمومية وكوفئوا عليه بالسجن لانهم وجدوا لاخوانهم طريقة لخلع نير اصحاب المال. فلذلك يمد نساجو روتشدل شهداء هذه الحركة الفكرية وكل رجل من مريدي جمعيات التعاون لا يستطيع ذكر عملهم بدون الاعتراف بفضلهم. ولكن مما يعزينا عما اصابهم من الذل والهوان انهم اذا كانوا تحملوا من العذاب اشكالا ومن الاضطهاد الوانا فان فكرتهم انتشرت واثمرت ثمراً جميلا بل ان جمعيتهم الاولى لا تزال قائمة في روتشدل الى يومنا هذا . وفي سنة ١٩٠٨ كان عدد اعضائها ١٦٠٠٠ وبلغت مبيعاتها في السنة ٤٠٠٠٠٠ جنيه انكليزي وتمكنت من توزيع ١٦ في المائة من الارباح على عملائها بالرغم عن المبالغ الكبيرة التي وهبتها لاعمال خيرية او لاعمال الغرض منها نشر التربية والتعليم

* * *

على اننا اليوم بعيدون جداً عن الاثني وعشرين نساجاً الذين كانوا يدفعون عشرة مليمات كل شهر. ففي سنة ١٨٦٢ اي قبل مضي عشرين سنة من تأسيس جمعية روتشدل كان في انكلترا ٤٥٠ جمعية يبلغ عدد اعضائها ٩٠٠٠٠ عضو وعلى حسب احصاآت سنة ١٩٠٧ كانت حالة جمعيات التعاون على لوازم المعيشة في انكلترا كما يأتي :

عدد الجمعيات	١٤٤٨
عدد الاعضاء	٢٣٢٣٠٠٠
رأس المال	٢٨٠٠٠٠٠٠ جنيه
المبيعات	٧٠٠٠٠٠٠٠ »
الارباح	١١٠٠٠٠٠٠ »
عدد المستخدمين	٧٦٠٠٠

فهذه الارقام العظيمة بحد ذاتها تزيد عظمة ايضاً اذا تذكرنا بان معظم الاعضاء البالغ عددهم ٢٣٢٣٠٠٠ من ارباب العائلات مما يجعل عدد الانكليز الذين ينتفعون

من جمعيات التعاون على لوازم المعيشة ١٠ ملايين اي نحو ٣/١ سكان انكلترا

وقد عقب هذا العمل العظيم عمل اخر لا ينقصه في العظمة وهو اتفاق جمعيات التعاون بعضها مع بعض. فجمعيات التعاون الانكليزية على لوازم المعيشة عرفت حالا ان المزايا التي تعود على اعضائها من اجتماعهم لشراء لوازمهم تعود على الجمعيات نفسها لو اجتمعت لشراء ما يلزمها من الاصناف المعدة للبيع. وهذه المزايا عظيمة جدا لانها تسمح لهذه الجمعيات بالتعامل رأساً مع اصحاب الاصناف ولذلك أسست جمعيات التعاون الانكليزية في سنة ١٨٦٤ مخزناً كبيراً لتأخذ منه لوازمها. وقد تبعها في هذ الحركة جمعيات التعاون السكوتلندية في سنة ١٨٦٨

وفي سنة ١٩٠٧ اشترى المخزن السكوتلندي العمومي الذي يبيع بالجملة اصنافاً لحساب ٢٧٨ جمعية من جمعيات التعاون وبلغ عدد مستخدميه ٢٢٠٠ مستخدم وقيمة مبيعاته ٧٦٠٠٠٠٠ جنيه وارباحه ٣٠٠٠٠٠ جنيه. ومع كل ذلك لم يكتف بحصر المبيعات بل أخذ يصنع الاشياء السهلة التركيب بنفسه. وفي

ذات السنة صنع هذا المخزن في ورشه التي يشتغل فيها نحو ٥٠٠٠ عامل اصنافاً بمبلغ ٢ ٤٠٠ ٠٠٠ جنيه

اما حركة الاشغال بمخزن الجملة بمنشستر فهي اعظم من ذلك ايضاً لان هذا المخزن ورد بضائع في سنة ١٩٠٧ الى ١١٤٠ جمعية من جمعيات التعاون وبلغت مبيعاته ٢٥ ٠٠٠ ٠٠٠ جنيه وارباحه ٥٦٠ ٠٠٠ جنيه وقد تجاوز عدد مستخدميه ٢٨٠٠ مستخدم. وكان يشتغل في ورشه اكثر من ١٣ ٠٠٠ عامل فصنعوا بضائع بمبلغ ٥ ٢٠٠ ٠٠٠ جنيه

وهذه الورش تصنع اصنافا متنوعة جدا فمنها ورشة الاحذية وورشة الخياطة وورشة المياه الغازية وورشة الابنوس والقسم الخاص بالبناء ونسج المنسوجات وتقديد الاسماك. وقد اتفق مخزن الجملة في منشستر مع مخزن الجملة في سكوتلندا ليكون لهما ذات العملاء في اقصى انحاء المعمورة فلهما مخزن في كندا لشراء القمح وآخر في الدنمارك لشراء الزبدة وعملاء في كاليفورنيا واستراليا وصقلية لشراء الفواكه وفاوريقة للشكولاته ومزرعة للشاي في جزيرة سيلان

فهل من الغرابة بعد ذكر ما تقدم ان تقاوم هذه الجمعيات شركات الاستثمار العظيمة مع وجود رؤوس المال الهائلة لديها وعدد عظيم من العمال المتدربين على الاعمال ووكلاء منتشرين في انحاء العالم

***

ولو اقتصرت في محادثتي هذه على ذكر ما تقدم لكان الكلام عن جمعيات التعاون على لوازم المعيشة في انكلترا ناقصاً اذ لا بد لي من ذكر شيء عن الاعمال الخيرية التي تأتيها هذه الجمعيات .

تبين لنا ان مخازن الجملة تصنع اصنافاً كثيرة في ورشها فهذه الورش عبارة عن شركات للاستثمار اي ان عمالها يقتسمون الارباح بعد توزيع ربح معقول على رأس المال الذي خصص لشراء المواد الاولية . وكثير من جمعيات التعاون الاخرى انشأت مثل هذه الورش لعمل الاصناف التي تحتاج اليها كالطواحين والمخابز وغير ذلك

وهناك جمعيات اخرى للتعاون تستثمر ارباح اعضائها بل تأخذ ما اقتصدوه وتوظفه وبذلك توجد الاتحاد التام

بين الشارين او اعضاء جمعيات التعاون وبين صناديق التوفير. والبعض من هذه الجمعيات ينفق جزءاً كبيراً من ارباحه على اعمال خيرية او اعمال اخرى نافعة للهيئة الاجتماعية . وفي سنة ١٨٨٧ انفقت جمعيات التعاون الانكليزية . . . ٢٠٠ جنيه على اعمال خيرية واعمال نافعة

اما في المانيا فبداء التعاون ابتدأ ينتشر منذ نصف قرن والجمعيات الاولى التي أسست فيها كانت في سنة ١٨٦٠ وهو الوقت الذي أسست فيه ايضاً شركات التعاون لتسليف النقود التي محت بانشائها ذكر جمعيات التعاون الاخرى. ومن ذلك العهد اصبحت المانيا البلاد التي نجحت فيها هذه الشركات اكثر من جميع البلاد الاخرى

وبالرغم من انتشار ونمو شركات التعاون لتسليف النقود في المانيا فان هذه البلاد تأتي بعد انكلترا فيما يتعلق بجمعيات التعاون على لوازم المعيشة مما يتضح من الارقام الآتية الخاصة بسنة ١٩٠٧ . ففي السنة المذكورة كان في المانيا ٢٤٦٥٢ شركة او جمعية للتعاون تضم تحت لوائها ٣٦٥٨٠٠٠ عضو . واكثر من نصفها كان خاصاً بتسليف النقود .

اما الباقي فمنه ٢٠٠٠ جمعية للوازم المعيشة تضم نحو ١٠٠٠٠٠٠ عضو. واغلب جمعيات التعاون على لوازم المعيشة كانت متحدة تحت جمعية واحدة مركزها في همبرج. واليك بعض ارقام تتعلق بها

٩٠٠	عدد جمعيات التعاون على لوازم المعيشة المتحدة فى جمعية واحدة
٧٧٧٠٠٠	عدد الاعضاء

جنيه	
١٢٠٠٠٠٠	رأس المال
١٠٠٠٠٠٠٠	قيمة المبيعات
٩٠٠٠٠٠	الارباح للاعضاء

ويتبين لنا من هذه الارقام حركة الاشغال في الجمعيات غير المتحدة. وقد قدروا مجموع المبيعات فى جمعيات التعاون على لوازم المعيشة كلها بمبلغ ١٦ مليون جنيه

وفي المانيا مخزن عظيم يبيع للجمعيات مثل ما هو الحال فى انكلترا ورأس ماله ٥٠٠٠٠٠ جنيه ومركزه فى همبرج. وهو يضم ٤٤٨ جمعية وقد بلغت حركة اشغاله فى سنة ١٩٠٧

اكثر من ٣٠٠٠٠٠٠٠ جنيه مما سمح له بتوزيع نحو ٢٠٠٠٠ ربحاً للمشترين . وقد امتازت هذه الجمعيات بميلها الى تكوين جمعيات كبيرة فمعظمها يبلغ عدد اعضائه ٥٠٠٠٠ عضو وجمعية برلين فيها ٩٠٠٠٠

واذا نظرنا الى فرنسا فاول امر يدهشنا فيها تفرق جمعيات التعاون على لوازم المعيشة. فالى هذه السنين الاخيرة لم يؤسس بفرنسا جمعيات تضم آلافاً من الاعضاء وتبلغ حركة اشغالها ملايين من الجنيهات . وهذا التفرق بفرنسا ناشئ عن الطبع الفرنساوي الذي لا يقبل بسهولة ان يدار او يساس بل يفضل ان يجري اشغاله وحده او مع جماعة من الاصدقاء وهو راجع ايضاً الى النظام الفرنساوي الذي يختلف عن نظام انكلترا اذ ان الزراعة نامية جداً في فرنسا وجمعيات التعاون على لوازم المعيشة المشتتة في البلاد الصغيرة يصعب عليها الاجتماع والانضمام تحت لواء واحد لانشاء مخزن كبير مثل المدن الكبيرة بل ان جمعيات التعاون الموجودة فى المدن الصغيرة لا يمكنها ان تتسع مثل جمعيات المدن ولذلك فانك ترى متوسط عدد الاعضاء في

الجمعيات الانكليزية ١٥٠٠ عضو بينما هو ٣٠٠ فقط في فرنسا. واذا كان الانكليزي يشتري بمبلغ ٧٠٠ فرنك في السنة فالفرنساوي يشتري بمبلغ ٣٠٠ فرنك فقط

وبالرغم من هذه الظروف التي اوجدتها حالة البلاد فان حركة التعاون في فرنسا قوية وشديدة والدرجة التي وصلتها تستحق الاعتبار كما يتضح من الارقام الآتية الخاصة بسنة ١٩٠٧ :

عدد الجمعيات	٢٣٠٠
عدد الاعضاء	٧٠٠٠٠٠
قيمة المبيعات	٨٥٠٠٠٠٠٠

على انه يوجد في فرنسا جمعيات كبيرة ولكنها قليلة العدد نذكر منها جمعية المستخدمين المدنيين في مقاطعة السين التي تضم ٢٠٠٠٠٠ عضو وتبلغ حركة اشغالها اكثر من ٨٠٠٠٠٠٠٠ فرنك في السنة

ومن بضع سنين اجتمع عدد من جمعيات التعاون الفرنساوية واتحد لانشاء مخزن كبير تشترى منه اللوازم مثلما هي الحال في المانيا وانكلترا. ففي سنة ١٩٠٧ كان يورد هذا المخزن الاصناف اللازمة الى ٣٣٠ جمعية وباع بمبلغ ٤٠٠٠٠٠ جنيه

واذا كانت الارقام الخاصة بحركة التعاون بفرنسا لا تدهش مثل الارقام الخاصة بانكلترا والمانيا فان فرنسا هي في مقدمة حركة التعاون من وجهة اخرى اسمى من الوجهة الفكرية. فهذه البلاد هي المعمل الذي تحضر فيه مبادئ التعاون الجديدة فمدارسها مثل مدرسة مان (Mans) مثلا نشرت ابحاثاً اتخذت كقوانين في العالم اجمع. وفرنسا لها رجل شهير في علم الاقتصاد هو شارل جيد (Charles Gide) يعتبر اعظم عالم في المسائل المتعلقة بجمعيات التعاون وقد جمع بين العلم الواسع وانكار الذات التام

ولا يسمح لي المقام في هذه المحادثة القصيرة بالكلام على البلاد الاخرى مثل ايطاليا حيث حركة التعاون شديدة الى درجة جعلت الاحزاب السياسية تهتم بالتسلط عليها لاستعمالها آلة لتنفيذ اغراضها. وسويسرا حيث حركة التعاون عملية محضة. وبلجيكا حيث جمعيات التعاون تؤيد الاحزاب السياسية المتطرفة. والدنمارك التي كانت دائماً في مقدمة جمعيات التعاون الزراعية وتعد شركاتها مثالا لهذا النوع

***

ولا بد لي الان من الاختصار فاكتفي اذاً بذكر بعض ارقام اجمالية عامة تسمح لحضراتكم بالوقوف على اهميـــة حركة التعاون

فى سنة ١٩٠٧ انعقد في بلدة كريمان المؤتمر السابع للاتحاد الدولي لجمعيات التعاون . فعلى مقتضى الابحاث التي ارسلت الى المؤتمر يمكن تلخيص الارقام الخاصة بجمعيات التعاون باوروبا كما يأتي :

عدد الشركات	٦٣٠٠٠
عدد الاعضاء	٦٥٠٠٠٠٠
قيمة المبيعات	١١٠٠٠٠٠٠٠ جنيه

واذا حسبنا عائلات اعضاء الجمعيات بلغ عدد الاعضاء نحو ٣٠ مليوناً اي ان عشر سكان اوروبا ينتفعون من مزايا جمعيات التعاون على لوازم المعيشة

والارقام الخاصة بالمخازن التي تبيع بالجملة هي اعظم من ذلك ايضاً ففي المؤتمر الذي انعقد في كريمان سنة ١٩٠٧ حضر ١١ مندوباً عن هذه المخازن التي بلغ عددها ١٣ مخزناً رأس

مال قدره مليوني جنيه وبلغت حركة اشغالها ٤٠ مليون جنيه وبلغت ارباحها ايضا اكثر من مليون جنيه

وفي المؤتمر المذكور جرت المناقشة في مسألة جمع هذه المخازن تحت مخزن كبير عام يشتري الاصناف لحساب هذه المخازن الكبيرة. فاذا تم ذلك اصبحت جمعيات التعاون نظاما كبيراً تعد حركة اشغاله بملايين الجنيهات وينفذ ارادته الى اصحاب الفبريقات والمعامل

***

سيداتي وسادتي

رغماً عن مضي الوقت اسمحوا لي بذكر بعض معلومات عملية عن حركة التعاون التي تكلمنا عنها . فبدون هذه المعلومات تكون محادثتي ناقصة لا تسمح لكم بالوقوف على دخائل شركات التعاون ومعرفة الاسباب الحقيقية التي ادت الى نجاحها وبدونها ايضاً لا يسهل البحث عن الوسائل الصالحة لادخال هذا النوع من الشركات في القطر المصري

فالصفات التي تمتاز بها جمعية التعاون موجودة في تعريف التعاون على لوازم المعيشة الذي الغرض منه جمع

الشارين ليتنفعوا من جميع المزايا الناتجة عن شراء الاشياء بالجملة ووقايتهم من الطمع الذي هو رائد جميع الوسطاء وخصوصاً صغار التجار ونريد بالطمع الغش في الصنف والوزن والسعر

فاعضاء جمعية التعاون يجب ان يكونوا متصفين قبل كل شيء بالاستقامة والنزاهة والحذر وان يجتهدوا في اشراك اخوانهم معهم في المنفعة باكبر المزايا وان يحافظوا على النجاح الذي حازوه. ولا نرى مشروعاً من المشاريع الاقتصادية ابتدأ صغيراً ونجح نجاحاً عظيماً مثل جمعيات التعاون فهذا النجاح الباهر السريع عائد قبل كل شيء الى روح الحذر والاحتراس والاستقامة المتصف به معظم اعضاء هذه الجمعيات

وهذه الصفات يجب ان تبلغ درجتها المتناهية عند اعضاء مجلس ادارة الجمعية الذين بيدهم مستقبلها ولذلك يتوقف نجاح الجمعية على معرفة انتخاب هؤلاء الاعضاء الذين يجب ان يكونوا من الكهول الذين علمتهم التجارب علي التمييز والحكم الصائب في جميع الاشغال التي تتقدم لهم في الوسط الذي يعيشون فيه . ضف الي ذلك صفة اخرى عزيزة الوجود

وهي اقتناعهم التام بمنفعة الوظيفة التي يؤدونها واقناع اخوانهم بذلك . فالقدوة هي احسن مثال في جمعيات التعاون وفي غيرها

وروح الحذر الذي يتحتم وجوده في هذه الجمعيات يقضي بالاحتراس جيداً في انتخاب الاصناف التي ترغب الجمعية الاهتمام ببيعها فيلزم ان تكون هذه الاصناف سهلة التداول قليلة العطب ذات سعر معروف اوان يكون سعرها معروفاً في الاسواق الكبيرة وذلك لاجل ان يتيسر لكل عضو من ارباب الخبرة ولو كان غريباً عن الصناعة ان يهتم بسهولة بهذا الصنف او على الاقل يلاحظ بيعه وشراءه بمعرفة مستخدم تعينه الجمعية اذا كان في استطاعتها ذلك . ومن الضروري في اول انشاء الجمعية ان تقتصر على عدد قليل من الاصناف لان شركات التعاون لا تكون غنية دائماً في اول انشائها ومن مصلحتها ان يكون لديها في بادىء الامر عدداً قليلا من الاصناف بكميات كافية لتقوم باحتياجات اعضائها فذلك اولى من ان تهتم باصناف كثيرة فينقصها تارة هذا الصنف وتارة صنف آخر لان الاعضاء الذين اعتادوا شراء بعض

الاصناف من الجمعية يتركونها اذا راوا انهم لا يجدون لديها ما اعتادوا على شرائه منها ويقصدون غيرها فتفتر غيرتهم على نجاح الجمعية . ولكن اذا علموا من قبل ان صنفاً ما لا يوجد في مخزن الجمعية فيتخذون التدابير اللازمة للحصول عليه من محل آخر لعلمهم ان جمعيتهم لا تبيعه

والاصناف التي نجحت فيها جمعيات التعاون على لوازم المعيشة اكثر من غيرها هي البقالة وبيع الخبز والاحذية وغير ذلك . اما بيع اللحوم فاصعب منها لانه يقتضي معلومات خصوصية لشراء حيوانات سليمة وتهييئها للبيع ويلزم راس مال كبير لها فضلا عن ان الطبقة الصغيرة من الاهالي لا تاكل من اللحم كل يوم . ومن الصعب ايجاد عدد كاف من اعضاء الجمعية في مدينة متوسطة يساعدون على نجاح محل يبيع اللحوم

اما الاصناف التي يلزم اجتناب الاتجار بها فهي التي يلزم شراء مقادير كبيرة منها وخصوصاً المعرضة لتغيرات الزي (الموده) . فلا يخفى ان اصناف اللبس اذا تغيرت مودتها اضطر الحال الى بيعها بخسارة وبيع الاصناف الجديدة التي حلت محلها بربح عظيم فضلا عن انه يوجد اصناف تباع بسعر

المشترى لاجل جلب المشترين . فكل هذا تدابير تكاد تشبه المضاربة ولا ينبغي ان يتشربها اعضاء نقابات التعاون وهي على كل حال ليست من اختصاص الرجال الذين ينتخبون لادارت هذه النقابات . اما اذا تاجرت النقابات بالقماش العادي ذات الصنف الحسن فيمكنها ان تشتري منه مقداراً كبيراً خصوصاً في البلاد التي يخيط اهاليها ثيابهم الداخلية بيدهم كما هو الحال في القطر المصري

ومن الصعب فتح اجزاخانة لاعضاء نقابات التعاون لان الاجزاخانة تستلزم صيدلياً فنياً ويتعذر في هذه الحالة مراقبة اشغاله كما ان الاجزاخانة تستلزم وجود اصناف متعددة متنوعة ولا يتيسر مطلقاً معرفة قيمة ربح التذاكر الطبية بالضبط لان بعض الادوية يتركب من اصناف عديدة ممزوجة معاً ولذلك فانك لا ترى في فرنسا اجزاخانة لنقابات التعاون بل تجد فيها نقابات لشركات الموتواليست . والفرق بين هذه النقابات وتلك ان في نقابات التعاون يدفع العضو ثمن الصنف الذي يشتريه بسعره الاصلي مضافاً اليه ربح قليل اما في نقابات الموتواليست فان الاعضاء يدفعون شهرياً مبلغاً

معلوماً هو في الحقيقة عبارة عن رسم يشبه رسم التامين على الحياة فاذا مرضوا حق لهم ان ياخذوا الادوية التي يصفها لهم الطبيب مهما كان سعرها ولكن في حالة الصحة يستمرون على دفع الرسم للقيام بنفقات اخوانهم المرضى

واذا كان من الصعب فتح اجزاخانة لاعضاء نقابات التعاون فانه من المفيد جداً فتح مخزن ادوية لهم او على الاقل مخزن تباع فيه ادوات الزينة والادوات الصحية والادوية البسيطة مثل المياه المعدنية والاعشاب الطبية والادوية الكثيرة التداول . ولا حاجة لفتح مخازن خصوصية لذلك بل يكفي ايجاد هذه الاصناف مع اصناف البقالة في مخزن واحد

وليس غرضنا مما تقدم الاقتصار دائماً على الاصناف الرائجة واجتناب الاصناف الاخرى بل حالما تنجح النقابات يمكنها ان تتوسع في الاصناف . فالمخازن الانكليزية الكبيرة التي مر الكلام عليها تبيع كل شيء ولها عملاء في جميع الاقطار يشترون لها الاصناف بارخص سعر . بل انها اخذت تصنع الان ذاتها ولحسابها الاصناف الاكثر رواجاً فقد اشترت مزارع للشاي في جزيرة سيلان

وهي تزرع البن في البرازيل . اما الاصناف التي تصنعها في فاوريقاتها فهي متعددة جدا كما يتضح من البيان الاتي المأخوذ من احد التقارير الاخيرة :

قصان . احذية . موبيليات . فرش . معمل سجاير . مخزن ادوية . الادوات المصنوعة من القصدير . الادوات الكهربائية . الصابون . المياه الغازية . الملبوسات . الطبع . التجليد . الماكولات المجففة والمحفوظة في العلب . السروج . الاقمشة المنسوجة . تشييد الابنية . تمليح السمك . الطواحين . زراعة الفواكه . صنع البرانيط

على ان هذا التوسع لا يتيسر الا بعد نجاح النقابات وتقدمها مدة نصف قرن مما يسمح لها بتكوين مال احتياطي عظيم وتدريب المستخدمين حتى يصبحوا اختصاصيين في الفروع التي يشتغلون فيها

اما في اول الامر فيلزم السير بتئان والاقتصار على الاصناف التي لا تتطلب الا رأس مال قليل وبعض المعلومات الاولية

ومن مبادىء الحياة العملية ان يجمع في جمعية واحدة

:لاشخاص الذين من طبقة واحدة ومن ذوق واحد . ومن البديهي ان مخزن البقالة التابع لاحدى جمعيات التعاون لا يمكن ان يرضي العامل البسيط والمثري العظيم في آن واحد لان الاصناف التي ترضي الاول لا تروق في عين الثاني. والاصناف التي يشتريها الثاني لا يقوى الاول على ابتياعها ولذلك ترى ان جمعيات التعاون التي نجحت اكثر من غيرها هي التي يكون اعضاؤها من طبقة واحدة اي عمال جملة معامل او مستخدمو ادارة او موظفون

فاذا تقررت هذه المبادىء العمومية وجب ان يكون مؤسسو جمعيات التعاون من ذوي الالمام التام باحوال البلاد التي ينتخبون منها اعضاءهم وان يعينوا الاصناف التي يبتدؤن بها عملهم لانه يجب ان توافق هذه الاصناف حاجات الاعضاء وذوقهم

ولننظر الآن الى الصفات العقلية الواجب اتباعها واولها الاستقامة. فالاستقامة فيما يتعلق بجمعيات التعاون لا تقتصر فقط على مسك الدفاتر بالضبط والدقة بل تتناول ايضاً الاهتمام في كل وقت كان بمصلحة الاعضاء . وتقوم هذه

المصلحة بالاكتفاء بربح قليل من الاصناف المباعة لان اعضاء الجمعية لم يجمعوا لجلب الربح لانفسهم بل لشراء احسن الاصناف بارخص ثمن ممكن . فالارباح يجب ان تكون كافية للقيام فقط بالنفقات العمومية وابقاء مبلغ صغير يسمح بتوزيع ربح من شأنه ان يزيد في همة الاعضاء على حسب اهمية ما اشتراه كل واحد وابقاء مبلغ صغير لادارة الاعمال

وعلى كل حال ينبغي الامتناع قطعياً عن توزيع الارباح على نسبة رأس المال الذي دفعه كل عضو بل ان التوزيع يكون بنسبة مشتروات كل عضو لان جمعية التعاون ليست مشروعا الغرض منه الاستثمار والاستغلال بل هو تعاون عمومي بين الاعضاء لشراء لوازم المعيشة على احسن مايمكن. وعلى ذلك فالعضو الذي يشتري مقداراً كبيراً من الاصناف يستحق اكبر قسم من الارباح . اما رأس المال فيخصص له ربح لا يتجاوز ٥ او ٧ فى المائة

وقد سبق القول فى اول هذه المحاضرة ان اعظم عمل اتاه نساجو روشدال انهم اكتشفوا هذه الحقيقة

ومصلحة المشترين تقضي ايضاً باجتناب بيع الاصناف

المعروفة بالاصناف المعدة للشهرة وهي عادة معدة لذر الرماد في اعين الجمهور . فالتجارة الان تشكو من كثرة الاعلان عن الاصناف ولذلك يلزم اجتناب الاعلان عن اصناف جمعية التعاون . كما انه يجب على اعضاء مجلس ادارة الجمعية ان ينتخبوا الاصناف التي توصي على نفسها بنفسها بجودتها ونبذ الاصناف الرخيصة التي لا تدوم كثيراً وفي الحقيقة تكلف اكثر من الاصناف ذات السعر المرتفع

ولذلك يجب ان يكون مبدأ جمعيات التعاون «الاهتمام بجودة الصنف قبل الثمن» . كما انه يجب على اعضاء مجلس الادارة ان يجلبوا الاصناف التي يمكن لاعضاء الجمعية شراءها مع مراعاة موارد هؤلاء الاعضاء لانه ليس الغرض من جمعية التعاون ان تبعد عن اعضائها ارباح الوسطاء فقط بل ان تقيهم ايضاً من الغش الذي يقدم عليه هولاء الوسطاء وهو مضر بالصحة كل الضرر

وهناك امر اخر يجب مقاومته بكل قوة لمصلحة اعضاء الجمعية وهو فتح حسابات للعملاء . فلا يخفى ان صاحب الدين هو اعظم عدو للجمهور لانه يلزم عميله بدفع قيمة الصنف

اكثر مما يساوي بكثير وكلما كان فقيراً رفع صاحب الدين سعر الصنف .

هذا وفيما يتعلق بالمبالغ الصغيرة مثل مصروفات العمال او الفلاحين فالفرق بين الفائدة المعقولة والربا قليل جداً بحيث ان البائع لا يحجم عن استعمال الربا وفي الحقيقة فهو يستعمله حتى في البلاد الاكثر تقدماً وتمدناً وعلى ذلك اذا اريد مقاومة الربا فيجب ايضاً مقاومة سهولة فتح الحسابات

ومن المبادئ العمومية التي يتحتم على جمعيات التعاون اتباعها انه يجب على هذه الجمعيات ان لا تفتح حسابات لعملائها . والبيع بالنقد يسمح لها ببيع اصناف جيدة وبثمن رخيص لانها هي ذاتها لا تستطيع ان تفتح حسابات في اول انشائها بدون ان تطالب ذلك ايضاً من العامل . ولا يخفى ان فتح الحسابات يعود دائماً بزيادة النفقة على الشخص المفتوح الحساب لاجله . هذا من جهة ومن جهة اخرى فان الجمعية بالزامها العضو بمشترى كل شيء بالنقد تعلمه الاقتصاد والنظر الى المستقبل وعمل ميزانية لايراداته ومصروفاته بحيث لا يزيد المصروف على الايراد . واذا كان بين الاعضاء من

يستولي على ماهية في آخر كل شهر فلا بأس من فتح حساب له لمدة شهر بحيث يكون هذا الحساب بنسبة ماهية العضو

وكل يعلم انه مهما اقتصد الفلاح او العامل في نفقاته فانه كثيراً ما تطرأ عليه ظروف تجعل ايراده غير كاف لنفقاته. ففي هذه الحالة لا بأس من فتح حساب لهذه الفئة من الاعضاء بصفة استثنائية وقتية. ولكن يجب على اعضاء مجلس الادارة ان لا يراعوا فقط في ذلك موارد العضو بل ايضاً استمراره على مشترى ما يلزمه من مخزن الجمعية عندما تتوفر لديه النقود.

ومن المبادىء التي يحسن اتباعها من هذا القبيل هو جعل اهمية فتح الحساب متوقفة على عدد الاسهم التي يحملها العضو

ومن المعلوم ان في كل جمعية من جمعيات التعاون يجب ان يكون العضو مساهماً او له جزء من سهم . ولتسهيل دخول الفقراء في الجمعية حددت قيمة الاسهم بادنى سعر يسمح به القانون فبذلك يمكن لكل عضو شراء سهم واحد على الاقل ودفع ثمنه ولو بالتقسيط . ولكن اذا كان من العدل ان تسمح الجمعية لهؤلاء الاعضاء الفقراء ان يقتنوا لوازمهم من مخازن الجمعية بثمن ارخص من الثمن الذي

يتتوهما به في الخازن الخصوصية وان يتصدوا بذلك بعض النقود فمن العدل ايضاً ان يساعد هولاء الاشخاص الجمعية بشراء اسهم جديدة بما اقتصدوه من المال . اما قرار مجلس الادارة الذي يقضي بان فتح الحساب يكون بنسبة عدد الاسهم المشتراة فهو غير كاف لحث هولاً على اتمام واجباتهم

جمعية التعاون التي تتبع المبادىء والقواعد السابق ذكرها يكون لها نصيب عظيم من النجاح بشرط ان يهتم اعضاء مجلس الادارة بملاحظة دخول البضاعة وخروجها واسعارها وبعبارة اخرى ان يلاحظوا الادارة اليومية وهو امر يسهل اجراؤه على كل رجل مستقيم نزيه . اما مسألة حسابات الشركة التي يتوهم منها كثيرون فهي سهلة جداً فيكفي ان يكون هناك دفتر للبضاعة ودفتر للصندوق

ففي دفتر البضاعة تقيد في جهة البضاعة الواردة حين ورودها مع ثمنها الاصلي مضافاً اليه المصاريف كالنقل وغير ذلك مما يسمح بتحديد البيع بالمفرد . وفي الجهة الاخرى من الدفتر يقيد كل ١٥ يوماً او كل شهر مقادير البضاعة المباعة وثمن البيع . وهذه الطريقة تمكن من معرفة مقدار الربح وما اذا

كان هناك اختلاس ما. اما الكشف الذي يحرر في كل ١٥ يوماً فيمكن الحصول عليه بسهولة بالتأشير على دفتر الصندوق.

وفي دفتر الصندوق يقيد المستخدم او مدير المحل كل صنف يباع وثمنه. وفي حالة البيع بلا نقد يقيد اسم الشاري امام المبلغ. وفي آخر السنة يقيد في دفتر البضاعة نتيجة جرد البضاعة الباقية في المخزن ويحرر كشف بالارباح والخسائر ويؤشر بالارباح الحقيقية وبكيفية استعمالها. فهذان الدفتران هما عبارة عن دفتر « الجرنال » « والدفتر الكبير » اللذين يحتم القانون بمسكهما في المحلات التجارية

ولاجل عمل حساب «بونات» الشارين في آخر السنة يعطى تذكرة لكل شارٍ من الاعضاء وقت المشترى يبين فيه قيمة ما اشتراه. ويستعمل لهذا الغرض الصناديق الخصوصية الحديدية التي تقيد قيمة المشترى. واذا كانت حالة الجمعية لا تسمح بشراء مثل هذه الصناديق فيكتفى بتأشير مدير المحل على البون. وفي حالة البيع بلا نقد يعطى العضو (الشاري) دفتراً صغيراً يقيد فيه بحضوره ما اشتراه والمبالغ التي دفعها مع اعطائه التذاكر حتى يعمل حساب بوناته في آخر السنة

واذا اضيف الى ذلك ـ : اولاً دفتر لقيد اسماء الاعضاء ومقدار ما يملكه كل منهم من الاسهم وما دفعه من ثمنها ويقيد فيه ايضاً في آخر السنة الاحتياطي الموجود ـ : ثانياً دفتر لقيد اسماء الموردين مع مواعيد الاستحقاقات فذلك كاف لمسك الحسابات بطريقة ترضى اصعب مراقبي الحسابات

وعلى المؤسسين بعد ان يؤسسوا جمعيتهم على قاعدة متينة ويختبروا احوالها مدة سنتين يتغلبون فيها على الصعوبات العملية ان يفكروا في الغرض من انشاء الجمعية الذي ليس غرضاً مادياً فقط . فيمكنهم ان يفكروا في تربية وتهذيب الاعضاء وتعليمهم على مبادئ التعاون. ويكون ذلك بطريقتين اولاً بادخال عدد كبير من الاعضاء في مجلس الادارة حتى يتمكنوا تحت ادارة الاعضاء المدربين من معرفة مبادئ الاقتصاد والنظر الى المستقبل وعمل حساب ايرادهم ومصروفهم وهو امر لازم لافقر الفقراء واكبر الاغنياء . ومن الضروري القاء محاضرات على جميع الاعضاء تكون سهلة المأخذ قريبة الفهم وتتناول مبادئ العلوم الاقتصادية وبنوع خاص العلوم التي تهم اعضاء الجمعية مثل مسألة الاجر والصناعة

والزراعة البسيطة وقبل كل شيء تعليمهم حركة التعاون ومداخلها ومخارجها ونجاحها

فبتأثير هذه التربية العملية والعلمية يتوصل اعضاء مجلس الادارة الى تدريب اعضاء حقيقيين لجمعيات التعاون « يعرفون تماماً مبادىء جمعيتهم ويعملون بها ويساعد كل منهم على محيء اليوم التي تكون فيه الهيئة الاجتماعية في احسن مركز ولا يكون ذلك الا بمساعدة رجال اذكياء متدربين على الاشغال التجارية والصناعية ومتصفين بالاستقامة والنزاهة فلا يقرون على قرار الا بعد ان يتأكدوا ان هذا القرار مفيد» .

برنار ميشيل